

عبد الرحيم الحاج محمد - القائد الأعلى للثورة في فلسطين محمد عقل*



عبد الرحيم الحاج محمد

لا شك في أن ما كُتِبَ حتى الآن عن القائد عبد الرحيم الحاج محمد يُلقي الضوء على نشاط هذا المجاهد الكبير والقائد الفذ^١، ولكن يوجد مكان لإضافات هنا وهناك لاستجلاء مختلف جوانب هذه الشخصية الوطنية وتبيان أوضاع استشهادها.

نسبه

ولد القائد أبو كمال عبد الرحيم الحاج محمد في قرية ذنابة الواقعة بجوار طولكرم، وهو ينتمي إلى حمولة سيف الوجيهة والكبيرة. ذكر إحسان النمر في كتابه تاريخ جبل نابلس والبلقاء أن سيف وحيف أخوان ينتميان إلى قبيلة عتيبة الحجازية، وتراجع عن قوله السابق بأنهم من آل سيفا التركمانيين الذين سيطروا على طرابلس الشام^٢، وفي مكان آخر ذكر أن آل سيف هم أبناء عم الحفاة ونزلوا برقة من جبل نابلس، ولما كثروا وقعت بينهم وبين الحفاة دماء، فخرجت منهم فروع ثلاث، وهم: آل داود وآل موسى وآل عيسى. نزلوا في وادي الشعير الغربي، فنزل الأول في ذنابة وعُرفت ذريته بأل سيف ولا تزال. ونزل آل موسى وآل عيسى في شوفة وكفر اللبد وعرفت ذريتهم بالبرقاوي نسبة إلى برقة، وقد

بقي فرع منهم فيها، وأصبح لهم شأن كبير في حوادث جبل نابلس في بداية عصر موسى بك طوقان^٣. ويذكر الدباغ أن حمولة الحفاة في برقة من قبيلة عتيبة، وهذه من قبيلة هوازن بطن من قيس عيلان، أما آل سيف فنقل عنهم قولهم إنهم يمنيون. وقال إنهم حمولة كثيرة العدد منتشرة في الديار النابلسية وغيرها^٤، وذكر الدباغ في مكان آخر من كتابه أن آل سيف يذكرون أنهم يمنيون. نزلوا في بادئ الأمر البلقاء ومنها نزحوا إلى برقة وهم منتشرون اليوم في ذنابة وطولكرم وعرة والبروة والمجيدل وترشيحا وكفر كنا، وفي دمشق عرفوا بدار الحنبلي وغيرها، وأول من نزل دمشق من آل سيف هو الشيخ مصطفى بن سليمان بن محمد بن مزهر البرقاوي^٥. يتفرع آل داود الذين نزلوا في ذنابة إلى فرعين: الأول الحاج محمد وهو الفرع الذي ينتمي إليه القائد عبد الرحيم، والثاني سمارة^٦ وهو الفرع الذي ينتمي إليه

١ نمر سرحان ومصطفى كباها مصطفى. عبد الرحيم الحاج محمد القائد العام لثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، سلسلة دراسات التاريخ الشفوي لفلسطين، رام الله، ٢٠٠٠، وانظر ما كتبه عبد العزيز أمين عرار عن المجاهد عبد الرحيم الحاج محمد في فصلية الجليل، القدس، العدد الأول، صيف ١٩٩٤، ص ١٥٠-١٦٦، والدراسة منشورة على الموقع الإلكتروني:

http://www.palestineremembered.com/GeoPoints/Thinnaba_941/Article_7890.html

٢ إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ج٢، مطبعة النصر نابلس، ١٩٦١، ص ٥٥٥-٥٥٦، محمد عقل، المفصل في تاريخ وادي عاره، ج٢، مطبعة الأمل، القدس، ٢٠٠٤، ص ٢٨٩-٢٩٠.

* باحث في التاريخ الفلسطيني في العهدين العثماني والبريطاني.

٣ حسان النمر، المصدر نفسه، ج١، ص ١٦٤-١٦٥.

٤ مصطفى الدباغ، القبائل العربية وسلالتها في فلسطين، منشورات اليسار، ١٩٧٩، ص ١٦٧، ١٩١.

٥ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، دار الشفق، كفر قرع، ط٢، ١٩٨٨، ص ٤١٧.

٦ نمر سرحان ومصطفى كباها، المصدر نفسه، ص ٢٨-٢٩.

شاكراً سمارة الذي كان معلماً في قرية عرعره وانضم إلى صفوف الثورة.

ثقافته ومستواه الاقتصادي

جنحت واحدة من المصادر الصهيونية إلى التقليل من ثقافة عبد الرحيم الحاج محمد والتشكيك في دوافعه الوطنية، فقد ذكر رجل الاستخبارات الصهيونية عزرا دانيان في كتابه «وثائق وشخصيات من أرشيف العصابات العربية» أن عبد الرحيم الحاج محمد تعلم في كُتَّاب قريته أيام الأتراك العثمانيين، وأنه كان يعرف القراءة والكتابة بدرجة عادية وبسيطة ضمن المستوى المعهود لدى الفلاحين، وأنه عمل في الزراعة فلما كبر بدأ يعمل في تجارة المحاصيل في طولكرم، أما سبب انضمامه إلى الثورة فمرده إلى أنه أفلس وخسر جميع ما يملك، وأقيمت عليه دعوى قضائية فصدر حكم باعتقاله لعدم سداه ديونه، فهرب وراح يتجول في القرى داعياً الناس إلى الانضمام إلى الثورة.^٧ وقد رد على هذا الادعاء المؤرخ الإسرائيلي تسفي ألبيلغ في كتابه «الثورة العربية الفلسطينية» بقوله:

كُتِبَ عن عبد الرحيم أنه ليس مثقفاً وأنه لا يكتب ولا يقرأ إلا بدرجة عادية وبسيطة ضمن المستوى السائد بين الفلاحين، وقيل عنه أيضاً أن انضمامه إلى الثورة كان تهرباً من الشرطة، بعد أن صدر بحقه أمر بالاعتقال بعد أن أعلن إفلاسه، وكذلك على أمل أن يجمع مالاً، ولكن من خلال محادثات مع أبناء بلدته الذين عرفوه عن كثب، يتبين أن الأمور في الواقع تختلف بشكل حاسم، فعائلة الحاج محمد [يسمىها سمارة] التي ينتسب إليها أبو كمال، كانت من العائلات المحترمة والغنية في منطقة طولكرم، اشتغل أبوه في الزراعة وتصدير المحاصيل الزراعية للبلاد المجاورة، وكان التعليم الذي يسهره لأبنائه جيداً في مفهوم تلك الأيام، فأنهى أبو كمال صفوف المدرسة الحكومية في طولكرم ثم انضم إلى أبيه للعمل في الزراعة، وأدار لحسابه المراسلات التي كانت المتاجرة مع البلاد المجاورة تقتضيها، وقيل

الحرب العالمية الأولى بسنتين. أختير أبو كمال مع عدد من الشبان الآخرين، من قبل لجنة حكومية عثمانية للتعليم في مدرسة عسكرية في بيروت، وعندما توقفت الدراسة مع نشوب الحرب، جُنِّد للجاندركة (الشرطة التركية) في طرابلس بلبنان، ولما عاد إلى طولكرم بعد انتهاء الحرب، برز في مجتمعه كرجل مثقف، ذي ميل للعمل في الحقل السياسي، أما الأراضي التي ورثها عن أبيه فقد سلمها الآخرين لزراعتها، بينما افتتح هو نفسه متجرًا للمحاصيل الزراعية في طولكرم، وروى عبد الحميد الناطور، مختار قلنسوة، وأخوه حسن، أن متجره قد نما وأن فلاحي قريتهم كانوا يستلفون منه أموالاً على الموسم ويبيعون له محاصيلهم، وفي طولكرم وقلنسوة قالوا أيضاً إنه لم يكن هناك إفلاس، ولكن أزمة حلت بالمتجر في سنتي ١٩٢٩-١٩٣٠... كما يتضح فإنه لم تكن للأزمة الاقتصادية عند من سيقدر له أن يكون قائداً رئيساً أي صلة بانضمامه للثورة التي نشبت بعد أن انقضت ما يقرب من الستة أعوام منذ تلك السنة.^٨

ويضيف ألبيلغ قائلاً: «وفيما يتعلق بالزعم حول أمر الاعتقال والفرار من وجه الشرطة، فقد أجري فحص للملفات الجنائية العائدة لتلك الفترة من قبل الشرطة الإسرائيلية، وتبين أن اسم أبي كمال غير وارد في ملفات قسم التشخيص الجنائي»^٩

ويتناقض ما ذكره عزرا دانيان عن الثقافة البسيطة والتعليم القليل مع حقيقة أنه التحق بصفوف الجاندركة العثمانية، والمعروف أن الملتحق بمدرسة الجاندركة كان يتلقى ويتعلم الموضوعات التالية: العقيدة الدينية الإسلامية، وتربية عسكرية، ونظام السفارة، ونظام الجاندركة الهمايوني، ولسان عثماني، وتفكير نظري، وحفظ الصحة، وتاريخ، وتدريب عملي على فنون القتال، ودراسة القانون الجزائي وأخلاق.^{١٠} أي أن عبد الرحيم الحاج محمد تلقى ثقافة وتدريباً عسكرياً جيداً قبل انضمامه إلى صفوف الثورة.

٨ تسفي ألبيلغ، الثورة العربية الفلسطينية، مركز الدراسات العربية، جبعات حبيبة، ١٩٧٨، ص ٥٨-٥٩.

٩ المصدر نفسه.

١٠ محمد عقل، وثائق محلية من فلسطين العثمانية، أ. دار الهدى، كفرقرع، ٢٠٠٥، ص ٣١٢-٣١٣.

٧ عزرا دانيان، وثائق وشخصيات من أرشيف العصابات العربية (بالعبرية)، القدس ١٩٤٤ (١٩٨٠)، ص ٣٠-٣١.



عبد الرحيم الحاج محمد وأبناؤه

سنة ميلاده

يلبس الحطة والعقال والسروال. ويرتدي سيفين على كتفيه.^{١٣} وكان متواضعاً حنوناً على مجاهديه. حدثني والذي المرحوم الحاج حسن سالم حسين أبو عقل قال: «زار القائد عبد الرحيم الحاج محمد عرعره وحثّ عند عين الزيتونة. فذهبت مع بعض الشباب لرؤيته وكان معه فصيلٌ كبيرٌ من المجاهدين. كان عبد الرحيم قائداً متواضعاً إذ لما رأى حذاء أحد المجاهدين ممزقاً أخذ مسلة وخيطاً وراح يرفّع الحذاء بنفسه. كانت أخلاقه حميدة وهو شريف ووطني كبير.» عاد عبد الرحيم لزيارة قريتي عرعره وعارة بعد تجدد الثورة عقب صدور توصية لجنة بيل الملكية بتقسيم فلسطين. وكان يحاول وقتها توسيع رقعة نفوذه. إذ ورد في تقرير للوكالة اليهودية. مؤرخ في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٧م. أنه «وصلت إلى قرية عارة عصابة مسلحة بقيادة عبد الرحيم الحاج محمد مكوّنة من ٥٠ رجلاً. وبقيت في القرية من الساعة الثانية عشرة ظهرًا حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً. وكان يرافقها رجل من حلب اسمه سامي تامو»^{١٤}

يقول الديباغ واصفاً أخلاق القائد عبد الرحيم: «عُرفَ بإخلاصه ونزاهته وتدينه. فكان موضع ثقة الناس ومحبتهم في طولكرم وأطرافها»^{١٥} أما أكرم زعيتر الذي التقاه في دمشق فيقول عنه: «أعجبت بتواضعه

يقرر الباحثان نمر سرحان ومصطفى كبتها أن القائد عبد الرحيم الحاج محمد ولد سنة ١٨٩٨م معتمدين على رواية ابنه كمال التي تقول إنه لما استشهد كان في الأربعين من عمره.^{١١} ولكن الروايات التي توردها المصادر العبرية تشير بوضوح إلى أن هذا التاريخ غير صحيح. فقد ذكر عزرا دانين أن عبد الرحيم الحاج محمد كان يوم استشهاده في العقد الخامس من عمره.^{١١} كما ذكر تسفي ألبيلغ أنه جُنّدَ للجيش التركي قبل الحرب العالمية الأولى بعامين. والمعروف أن الأتراك كانوا يُجنّدون الشخص عند إنهائه سن العشرين. ثم إن العامل في سلك الجاندرمة كان عليه أن يتعلم في مدرسة الجاندرمة الجديدة في بيروت مدّة خمسة أشهر. وعليه فإن سنة ١٨٩٢م هي التاريخ الصحيح لميلاد القائد عبد الرحيم الحاج محمد.

صفاته وأخلاقه

كان القائد عبد الرحيم الحاج محمد طويل القامة. سميناً، أبيض البشرة. واسع العينين وذا صوت جهوري.

١١ نمر سرحان وكبتها. مصدر سبق ذكره. ص ٢٨.

١٢ عزرا دانين. مصدر سبق ذكره. ص ٣٠.

١٣ عزرا دانين. مصدر سبق ذكره. ص ٣٠.

١٤ الأرشيف الصهيوني المركزي. ملف ٢٥/٣٢٩٢ s.

١٥ مصطفى مراد الديباغ. بلادنا فلسطين. مصدر سابق. ج ٢. ص.

٣٠٨.

المقرون بثقةٍ بنفسه، وجرى بيننا نقاش حول شؤون الثورة فكان منطقيًا في حديثه، سليمًا في تفكيره، وفي التقارير الإنكليزية، التي تقع صور عنها بأيدينا، كنا نقرأ تقدير الإنكليز له واحترامهم إياه.^{١٦} وذكر عزرا دانين، رغم تحامله عليه، أنّ عبد الرحيم لم يتدخل في صرف الأموال وإنما أوكل ذلك إلى مختصين كي لا يقال أنّه يستغل منصبه لمصلحته، ويضيف أنّ العرب واليهود وسلطات الانتداب كانوا يرون فيه الرجل الجيد والمحترم الذي يقف على رأس الثورة.^{١٧}

معارك القائد عبد الرحيم مع الإنكليز

خاض القائد عبد الكريم عددا من المعارك مع قوات الجيش البريطاني في فلسطين، وأظهر فيها شجاعة كبيرة وحكمة عسكرية تسببت بتكبيد الإنكليز خسائر كبيرة في الأرواح، ومن هذه المعارك:

معركة نور شمس الأولى

ذكر الديباغ في كتابه «بلادنا فلسطين» أنه في ٢٢ حزيران ١٩٣٦م اشتبك الثوار بقيادة عبد الرحيم الحاج محمد في معركة حامية بالقرب من نور شمس. امتدت لساعاتٍ طويلة، مع الجنود البريطانيين الذين كانوا يحرسون القوافل اليهودية السائرة بين حيفا وتل أبيب. واستخدم البريطانيون في هذه المعركة الطائرات والدبابات والمدافع الرشاشة، فضلاً عن انضمام أعداد كبيرة من الجنود البريطانيين إلى القوة الملتحمة مع المجاهدين. ولما خيم الظلام انسحب الثوار بانتظام وكذلك القوات البريطانية. وقد أسفرت هذه المعركة عن استشهاد وجرح خمسة وعشرين من المجاهدين، وقتل بعض البريطانيين وجرحهم، وخسارتهم طائرة حربية، وقام المجاهدون بتدمير ثلاث سيارات عسكرية تابعة للبريطانيين وقتلوا ركبها.^{١٨} وقد ذكر هذه المعركة مؤلفو كتاب الرواية الإسرائيلية الرسمية

١٦ أكرم زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية- يوميات أكرم زعيتر منشورات اليسار، باقة الغربية، ١٩٨٨، ص ٥٨٧.

١٧ عزرا دانين، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤.

١٨ مصطفى الديباغ، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ٢١٥-٢١٦، وقارن: عيسى السفري، فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، ج ٢، يافا، ١٩٣٧، ص ٧٧-٧٨.

للثورة العربية الكبرى حيث قالوا: «وقع الصدام الكبير الأول في ٢١ حزيران ١٩٣٦م في مكان كان معداً لأعمال الشغب بالقرب من نور شمس. إذ هاجمت عصابة مؤلفة من ستين شخصاً قافلة متوجهة إلى حيفا، بمواكبة ثلاث سيارات عسكرية مجهزة بمدفعين رشاشين ثقيلين، ومدفعين رشاشين من طراز لويس. واصطدمت القافلة بحاجز من الحجارة، وتعرضت لوابل من الرصاص انهمر عليها من الجبال، وقفز الركاب من السيارات إلى قنوات بجانب الطريق. وردّ الجيش على إطلاق النار. ووصلت أعداد أخرى من الجنود من نابلس. واستمرت المعركة أكثر من سبع ساعات، حتى المساء، إذ كان رجال العصابات يستغلون مواقعهم المريحة على قمم الجبال استغلالاً جيداً، وقتل جندي بريطاني وجرح ثلاثة آخرون. أما الشهداء العرب فدفنوا في نابلس وطولكرم، وتحولت جنازتهم إلى تظاهرة وطنية كبرى.^{١٩}

معركة نور شمس الثانية

جرت في ٢٨ تموز ١٩٣٦م بالقرب من طولكرم في المنطقة الواقعة بين نور شمس وعنبتا معركة حامية الوطيس بين الثوار الفلسطينيين، بقيادة عبد الرحيم الحاج محمد وعبد الله الأسعد، وبين الجيش البريطاني. وقد أسفرت هذه المعركة عن استشهاد ثائرين وجرح وأسر مجاهد ثالث، يدعى حسن رزق من قرية عارة. وعن مقتل شرطي بريطاني اسمه رن وجرح شرطي آخر. وقد شارك في هذه المعركة فصيل من أبناء عرعة وعارة.^{٢٠}

علاقة عبد الرحيم الحاج محمد بفوزي القاوقجي

لما وصل القائد فوزي القاوقجي إلى فلسطين في ٢٢ آب ١٩٣٦م، كان عبد الرحيم الحاج محمد من أوائل من التقوه وانضموا إليه، وقد بقي إلى جانبه وشاركه في جميع المعارك التي خاضها في فلسطين، ثم خرج معه في ٢٥

١٩ الثورة العربية الكبرى- الرواية الإسرائيلية الرسمية، ترجمة أحمد خليفة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣٠.

٢٠ محمد عقل، المفصل في تاريخ وادي عاره، ج ١، مطبعة الشرق العربية، القدس، ١٩٩٩، ص ٣٦-٣٨.

تشرين الأول ١٩٣٦م إلى الأردن. ليعود بعدها إلى البلاد.^{١١}

رؤساء فصائله

الرحيم الحاج محمد». وذكر عزرا دانييل أنّ شاكراً سمارة كان معلماً في مدرسة حكومية. وترك مهنته وبدأ بيتاً دعاية بين معلمي المدارس في القرى والمدن الذين أذكوا نار الثورة. «لقد نجح نجاحاً باهراً. لذا ازداد تأثيره وسطع نجمه. ثم إن عائلة سمارة أيدته في جميع أعماله.» أمّا عبد الرحيم علي حمدان فإنّ دانييل يذكر أنّه كان يعمل معلماً في مدرسة حكومية. ثم أُقيل من عمله. فانضم إلى قوات القائد عبد الرحيم الحاج محمد. الذي عيّنه مديراً لقلم استخباراته. ووضع تحت قيادته رجالاً يأتون بمعلومات عمّا يدور في الحكومة والجيش وما يُكتب في الصحف. ويضيف دانييل أنّ حمدان نظّم الاتصالات بينه وبين الضباط ورجال الشرطة العرب في القرى.^{١٢}

معركة بلعا الثالثة

في ٦ تشرين الثاني ١٩٣٨م جرت بين الثوار العرب وقوات الجيش البريطاني معركة حامية الوطيس في بلعا. وقد باء هجوم الجنود الإنكليز على الثوار الذين تمكنوا من إسقاط طائرتين للجيش. بالفشل. وقد ورد في تقرير قدّمه أحد الجواسيس العرب إلى الوكالة اليهودية بشأن الحادث ما يلي: «يُروى أنه أسقطت طائرتان. وليس واحدة كما جاء في البيان [الحكومي] الرسمي. الأولى احترقت والثانية انقلبت على ظهرها. كانت الطائرة الثانية من الطراز الحديث وعليها أربعة رشاشات. وقد غنم الثوار ثلاثة منها مع صندوقين من الرصاص. جميع ذلك نُقل إلى عتيل. رجال العصابات لا يعرفون كيفية استخدام هذه الرشاشات واستدعوا رجالاً من الشرطة العرب كي يعلموهم كيفية استعمالها. لقد أخبرتكم بأنّ عبد الرحيم الحاج محمد تمركز في بلعا. عُلم من كل من عبد القادر الحسيني. إبراهيم العموري. عبد الله الأسعد ورؤساء عصابات آخرين... بأن مركز عبد الرحيم الدائم أصبح في بلعا. وبسبب اقتراب موسم الشتاء فقد بنوا له غرفة خاصة تحت الأرض. فيما فشل الهجوم البريطاني على بلعا تماماً.»^{١٣}

قلم استخباراته ودعائه

حدثني والدي المرحوم الحاج حسن سالم حسين أبو عقل قال: «يعود الفضل في زيادة الوعي القومي لدى أهالي قرية عرعر إلى معلمين اثنين سكنوا فيها وعملا في مدرستها الابتدائية الحكومية. وهما الأستاذ عبد الرحيم علي حمدان من قرية ذنابة. وكان مربوع الوجه. ممتلئاً وأبيض البشرة. وهو من أقارب القائد عبد الرحيم الحاج محمد. والأستاذ شاكراً سمارة من قرية ذنابة. اعتاد الأول أن يحتسي القهوة السادة في باحة دار المرحوم محمد المرعي مع لفييف من سكان القرية. وأن يقرأ لهم الجريدة عن أخبار الإضراب العام والثورة. ويضيف أنّ ثورة ١٩٣٦م بدأت وهو في عرعر مع زوجته. وكان الناس يُحبّونه ويحترمونه. أمّا الثاني فكان في سنة ١٩٢٧م معلماً في مدرسة قرية عرعر الابتدائية. وقد حتّ أهالي القرية على تقديم إغاثة إلى منكوبي الزلزال في نابلس. ونجح في ذلك. وفي الثلاثينيات من القرن الماضي انتقل الأستاذ شاكراً سمارة للتعليم في مدرسة سحمانا. ثم ترك سلك التعليم وانضم إلى صفوف الثورة بقيادة عبد

١٢ عزرا دانييل. ص ٣١-٣٢: الأرشيف الفلسطيني في جامعة بيرزيت (وثائق).

١٣ أرشيف الهاغاناه. ملف ٢ عام ٨. وانظر الأرشيف الصهيوني المركزي. ملف ٢٥١٣٥٤٠. s.

١١ عزرا دانييل. مصدر سابق. ص ٣١.

موقف القائد عبد الرحيم من الشيوعية

كان القائد عبد الرحيم الحاج محمد متديباً لكنه لم يكن مترمماً. وقد اتخذ موقفاً معادياً من الشيوعيين الفلسطينيين. إذ ورد في تقرير لمخابرات الهاغاناه مؤرخ في ٣١ تشرين الأول ١٩٣٨م ما يلي: «يُخبرنا المخبرون أن هناك مجموعة منظمة من الشيوعيين تعمل مع العصابات. ولكن بما أن الشيوعيين مكروهون لدى العرب فإن هذه المجموعة تُسمّى نفسها حزب اليسار (يساريين). ومن أهم أعضاء هذه المجموعة طاهر القَبَّح من قرية عنبنا. وكان يعمل في محطة التجارب في المجدل. زار القَبَّح بيروت والتقى بالمفتي وجلب معه رسالة منه تُوصي بأنه شابٌ متنوّر وناجحٌ ويمكن الاستفادة منه. ولما عاد من بيروت إلى فلسطين نظّم عملية حرق وهدم محطة التجارب التي عمل فيها سابقاً. وجمع حوله عصابة. وهو ينشط الآن في الجنوب. معروف. كذلك. أن فؤاد نصّار من الناصرة نشيط كذلك في مدينته. وتحصل هذه المجموعة على دعم كبير من الدكتور داود الحسيني من القدس. الموجود اليوم في سوريا. ومن محمد سليم أبو لبن. وهو من يافا. عندما علم عبد الرحيم الحاج محمد. رئيس العصابات. بأنهم شيوعيون طلب إبعادهم قائلاً إنهم سيجلبون الدمار على الثورة. حينها تفاوض الدكتور داود الحسيني ومحمد سليم أبو لبن مع عبد الرحيم بهدف إقناعه بجدوى التعاون المشترك. ولكنهما حتى الآن لم ينجحا في إقناعه. يرفض رؤساء العصابات في فلسطين مثل هذا التعاون. وغير معروف كيف سينتهي الأمر.»^{٢٤}

وورد في تقرير آخر لمخابرات الهاجاناة مؤرخ في ٢٧ كانون الأول ١٩٣٨م ما يلي: «يُخبرنا المخبرون بأن قادة العصابات أمروا الشيوعيين العرب بتسليم سلاحهم وعدم التدخل في أية عملية. وإلا فإنّهم سيتخذون ضدهم إجراءات صارمة. هذه المجموعة التي بدأت عملها بتوصية من المفتي كانت الأولى التي استخدمت البث الإذاعي في فلسطين. لقد أبدى قادة العصابات شكوكاً نحوها. وبعد أن كشفها المعلم يوسف جابر أمام القادة قرر هؤلاء إبعادها عن كل عملية. كما أنهم منعوا الدكتور داود الحسيني. رئيس المجموعة. من القدوم إلى فلسطين كما اعتاد أن يفعل بين الحين والآخر كي يشرف على عمل المجموعة ويعطيها الأوامر. زعماء هذه المجموعة الشيوعية هم بالإضافة

إلى الدكتور داود الحسيني. طاهر القَبَّح من طولكرم. فؤاد نصّار من الناصرة وحمد الحسيني من غزة.»^{٢٥}

خروج القائد عبد الرحيم إلى سوريا

ورد في تقرير لمخابرات الوكالة اليهودية مؤرخ في ٨ كانون الثاني ١٩٣٩م ما يلي: «يُخبرون أن التفكك في داخل العصابات يزداد ازدياداً مطرداً بعد أن غادر يوسف أبو درّة البلاد في ٣ كانون الثاني ١٩٣٩م. وفي نفس الليلة غادر كذلك عبد الرحيم الحاج محمد وهو من ذنابة من القيادة الرئيسية ورئيس عصابة. لقد اجتاز عبد الرحيم نهر الأردن ومن هناك وصل إلى دمشق. حلّ محله سليمان خليفة المرادوي من بيت أمرين يساعده عبد الله طه. كان سبب خروج عبد الرحيم من فلسطين هو انقطاع الأموال من المركز في دمشق. وفساد الأسلحة المستوردة في الفترة الأخيرة. الرصاص عبئٌ بصورة سيئة. وأحياناً كان معبئاً بالتبن. كما تبين أن أكثر المتعاونين مع العصابات هم في الحقيقة جواسيس للإنكليز ما أدى إلى بأسه من الإستمرار في العمليات.»^{٢٦} وحسب المؤرخ الإسرائيلي أُوحنّا يوفال فإنّ اللجنة المركزية للثورة في دمشق وبعد أن سافر عبد الرحيم إلى سوريا. «حاولت حتّه على العودة إلى فلسطين. فقرر استغلال الموقف والضغط عليها للحصول على حلمه القديم. وهو تعيينه قائداً أعلى للثورة. فكان له ما أراد. وقد اشترطت عليه اللجنة المركزية أن يكون خاضعاً لأوامرها وأن ينفذها.»^{٢٧} ولدنا تفاصيل أخرى حول هذه القضية وردت في تقرير أعدته منظمة الهاغاناه الصهيونية عن قرية ذنابة: «أخبر عارف عبد الرازق المفتي بأن عبد الرحيم الحاج محمد يميل إلى حزب النشاشيبي. كما أخبره أنّ عارف قتل رشيد حنون. ومنذ ذلك الوقت بدأ عبد الرحيم يهاجم رجال عارف. فأوقف المفتي راتب عبد الرحيم. حاول زعماء القرى الإصلاح بينهما.... وبالفعل اجتمعوا في كفر الديك خارج قلقيلية. سافر بعدها عبد الرحيم إلى سوريا لاستيضاح الأمر.

٢٥ أرشيف الهاغاناه. ملف ٢ عام/٨. عن نشأة العلاقة بين الدكتور داود الحسيني والقائدين عبد الرحيم الحاج محمد وعارف عبد الرازق انظر: سميح حمودة: «أوراق داود الحسيني - جوانب مستترة من النضال الفلسطيني في فترة الانتداب». حوليات القدس. مجلد ٦. عدد ٦. (شتاء-صيف) ٢٠٠٨.

٢٦ الأرشيف الصهيوني المركزي. ملف ٢٥/٣٥٤٠ s.

٢٧ أُوحنّا يوفال. فلاحون في الثورة العربية (بالعبرية). تل أبيب. ١٩٨٢. ص ١٠٩.

٢٤ أرشيف الهاغاناه. ملف ٢ عام/٨.

وحصل هناك على راتبه عن ثمانية أشهر خلت. وعلى قائمة بأسماء خونة عرب للقضاء عليهم.^{٢٨}

كان مع عبد الرحيم فوزي الجرار الذي استطاع الهرب ونجا بنفسه.^{٢٩}

ظروف استشهاد القائد عبد الرحيم الحاج محمد

وردت تفاصيل حول مقتل عبد الرحيم الحاج محمد في التقرير السابق لمخابرات الهاغاناه عن قرية ذنابة تفيد بأن عبد الرحيم كان «قد قتل في سيلة الظهر رجلاً من عائلة «ر». فلما سمع أحدهم أن عبد الرحيم الحاج محمد قد سافر إلى سوريا تبعه إلى هناك حيث صرف أموالاً طائلة وتعقب خطاه. فعلم متى سيعود. فلما وصل عبد الرحيم إلى صانور بالقرب من سيلة الظهر كان لدى عائلة «ر» جهاز لاسلكي. فخابروا الشرطة بذلك. وصلت قوات الأمن وطوّقت القرية. حاول عبد الرحيم اختراق الطوق وكان يحمل مسدساً. ولكن الجيش أصابه بجرح فطلب «ف» وقف إطلاق النار وتقدم نحو الجريح وسأله هل أنت أبو كمال؟ فقال نعم. فسأله «ف» وهل أنت الذي قتلت أخي؟ فردّ بنعم. فسأله «ف» هل لديك ما تقوله؟ ثم أطلق عليه سبع رصاصات وقتله.^{٢٩}

ويورد أوحنا يوفال رواية فيورد رواية قريبة من السابقة تقول أنّ عبد الرحيم الحاج محمد ترك «دمشق إلى شرقي الأردن في طريقه إلى فلسطين ومعه سليمان أبو خليفة مساعده وحارسه. ووصل خبر وصوله إلى مسامع عائلة «ر» المعارضة. فتعقبت خطواته حيث أخبر أحد أبنائها الإنكليز بأن عبد الرحيم ومساعدته سيدخلان منطقة جنين ويناوما ليلة ٢٦ آذار ١٩٣٩م في قرية صانور. طوقت وحدة بريطانية القرية وفتحت النار على الاثنين اللذين حاولا الهرب فقتل كلاهما. وهكذا قتل القائد الأعلى للثورة في فلسطين فوراً بعد تسلّمه لوظيفته. وقبل أن يستغلها بصورة فعلية.^{٣٠} وذكر الدباغ أنه كان مع عبد الرحيم سليمان أبو خليفة وسعيد البيتاوي المعروف بسعيد بيت إيبا.^{٣١} وقد ورد في تقرير للوكالة اليهودية مؤرّخ في ٩ نيسان ١٩٣٩م أنه

٢٨ أرشيف الجيش الإسرائيلي. ملف ١٦٢٧/٩٤/٣٣٢.

٢٩ المصدر نفسه.

٣٠ يوفال أوحنا. مصدر سبق ذكره. ص. ١٠٩.

٣١ مصطفى مراد الدباغ. مصدر سبق ذكره. ج ٢. ص ٣٠٩. مع التنويه بأن سعيد بيت إيبا لم يقتل بل استطاع الاختفاء بين الزرع وكان عالياً. وهرب خارج القرية.

ردّات فعل العرب

يقول الدباغ أنّ فلسطين حزنت لفقد عبد الرحيم الحاج محمد. ولم يخفِ الفلسطينيون حزنهم على شهيدهم فرُفعت الأعلام السوداء وأقيمت صلاة الغائب في المساجد وأقيمت في منازل قضاء طولكرم التعازي والمآتم.^{٣٢} ويقول أوحنا أنّ جميع الحوانيت في فلسطين أغلقت أبوابها حزناً على الشهيد.^{٣٣} أما كتاب الرواية الإسرائيلية فأورد وصفا مفصلاً جاء فيه: «وعند انتشار نبأ مقتله في البلاد (فلسطين) أضرب العرب في كافة أنحاءها. كتبت دافار: وكان الإضراب في يافا شاملاً. فالميناء توقف عن العمل. والسيارات والمركبات توقفت هي أيضاً عن السير. وبدت المدينة كأن حظرا للتجول فرض عليها. وفي نابلس تظاهر الناس في الشوارع. وعقد المتظاهرون أشرطة سوداء. وفي حيفا اعتدّي على العمال الذين خرجوا إلى أعمالهم. لكن بعد أن قتل اثنان منهم ساد المدينة إضراب تام.»^{٣٤}

ملحق وثائقي

الوثيقة الأولى

بيان بخط يد القائد عبد الرحيم الحاج محمد حول جمع التبرعات باسم الثورة
بسم الله الرحمن الرحيم
مقر القيادة العامة بفلسطين
الحمد لله وحده والصلاة على من لا ينسى ذكره
٢٩ جمادى الأولى ١٣٥٧ هـ
(١٩٣٨/٧/٢٧)

بيان

لقد وصل إلى علم مجلس القيادة أن بعض الناس يطلبون إعانات من الأهالي باسم الثورة. ولذلك ترى القيادة أن تعلن إلى الجميع أنها لم تحوّل أحداً بذلك. وأن كل من تحدّثه نفسه بتكرار هذا الطلب باسم

٢٢ الأرشيف الصهيوني المركزي. ملف ٢٥/٣٥٤٠ s.

٢٣ مصطفى الدباغ. مصدر سبق ذكره. ج ٢. ص ٣٠٩.

٢٤ يوفال أوحنا. مصدر سبق ذكره.

٢٥ الرواية الإسرائيلية الرسمية. مصدر سبق ذكره. ص ١٧٢.

القيادة يكون معرّضاً نفسه لأشد العقاب. أما الطلبات التي تريدها القيادة نفسها فقريباً وقريباً نعلنها إلى جميع العرب في المدن والقرى. والسلام.

المجاهد الصغير
عبد الرحيم الحاج محمد

الوثيقة الثانية

رسالة من عبد الرحيم الحاج محمد لمحمد الصالح (أبو خالد) حول تجاوزات عارف عبد الرازق
مجلس القيادة العليا لجيش الثورة في فلسطين
١٩٣٨/٩/١

إلى الأخ الغالي أبي خالد
سلاماً واحتراماً عظيماً

أمل أن تكون صحتك جيدة. في ١٩٣٨/٨/٢٩ جاء الأخ عارف (عبد الرازق) وحاصر القرية الوادة سنيرية. وضرب الأهالي. وأهان كرامتهم. هاجم نساءهم وأطفالهم. واستولى على ملابس الكثيرين منهم. حقرهم وسخر منهم وعمل أعمالاً غريبة ومخزية. ما اضطر بعض قادة فصائلنا إلى معارضته. ولولا تدخل عدد من الأشخاص لكانت عواقب هذا الأمر وخيمة.

من أجل وضع حدّ لهذا الخلاف. فإنني أرسل لك هذه الرسالة كي تقوم بالتحقيق مباشرة وتوقف الأشخاص الذين هم أمثاله عند حدّهم. وبذلك تدافع عن السكان من هجماته وأعماله السيئة. أمل أن تحضر إلي حالاً.

الوطن فوق الجميع
المجاهد الصغير
عبد الرحيم الحاج محمد

الوثيقة الثالثة

رسالة أخرى من عبد الرحيم لمحمد الصالح حول الخلاف مع عارف عبد الرازق
مجلس القيادة العامة لجيش الثورة في فلسطين
١٩٣٨/٩/٣

للأخ الغالي أبي خالد

السلام عليكم. تسلمت رسالتك وفيما يلي ردي على فحواها:

أخبرتني بموضوع توفيق العلي وفخري. هذا الأمر طبعاً. معروف وعليك أن تكون حذراً لأن طريق هؤلاء الأشخاص إلى الشرق. اختر عشرة أشخاص مدرّبين لاعتقالهم. ونحن نعرف كيف نعالجهم. [...] بخصوص عارف عبد الرازق والمبالغ التي جمعها فهذه حقائق معروفة للجميع. في الأيام الأخيرة كان لنا عدد من الجلسات من أجل التحقيق مع الفلاحين حول قضية استعمال

القسوة من قبل عارف والأموال التي جمعها. جميع الأشخاص أنكروا هذه الاتهامات. كان جواب عارف بخصوص تنظيم حركة الثورة والمحافظة على قدسيتها وتأييف مجلس للقيادة أنه يوافق على إقامة مجلس يشمل جميع الثوار. وليس كما تتطلبه الظروف. وهو يطلب مجلساً مع رؤساء ومفتشين لمراقبة جميع الأمور. أنا أرى أن هذا الشخص متكبر ومعتز بنفسه. سنبحث هذا الأمر عند لقائنا.

سلاماً لجميع الأخوة المجاهدين

خادم دينه ووطنه
المجاهد الصغير عبد الرحيم الحاج محمد

الوثيقة الرابعة

رسالة من عارف عبد الرازق لمحمد الصالح (أبو خالد) حول خلافه مع عبد الرحيم الحاج محمد
١٩٣٨/٩/٤

إلى الأخ أبي خالد

سلامات. شكراً لك على موقفك النبيل والمخلص تجاه الخلاف الذي نشب بيني وبين أبي كمال. هذا الخلاف لم يكن في مصلحة الله والوطن. وإنما بسبب أشخاص أنت تعرفهم جيداً. هل تعتقد بأنه كان لأبي كمال حق في أن يكون عنيداً ومجافياً بدون أي سبب سوى بسبب أشخاص معينين أنت تعرف حقاً موقفهم من الله والوطن وكذلك وقوفهم ضدي.

أخي. لقد كنت راضياً جداً وأكثر من ذلك فإنه ليس بإمكانني أن أعبر عن مشاعري تجاه موقفك من هذا الموضوع. ماذا كان سيحصل لو حدثت بيننا نزاعات وحروب الواحد ضد الآخر؟ سيكون العدو واليهود مسرورين لهذا. في الحقيقة لو أن أبا كمال أرسل جيشاً ليحاربني لكنت تحملت ذلك وسامحته وما كنت حاربتة. ولكن في يوم الحساب عندما أسأل عن موقفك تجاه المؤمنين عندما وقفوا في معسكرين يحارب الواحد منهما الآخر فإنني سأجيب بالأمور المعروفة لي. علمت أنه حاول إثارة مشاعرك. ولكن ضد من؟ ضد رفيق مثله وأعلى منه درجةً في الجهاد؟ ضد مسلم ضحّى بكل ما يملك؟ لن أنسى أبداً يوم الحساب. سامحه الله وسامح أولئك الذين لهم غيرة وحماس غير إسلاميين. إني أشكر الله على نعمه على المؤمنين وعلى رحمته لشعبه الذي حلت به مصيبة. هذه رسالة شكر على موقفك. وفي النهاية اقبل شكري وتقديري.

المتوكل على الله
عارف عبد الرازق

الوثيقة الخامسة

رسالة من عبد الرحيم لمحمد الصالح حول طريقة حل الخلاف مع عارف عبد الرزاق
مجلس القيادة العامة للثورة في فلسطين
١٩٣٨/٩/٦

إلى الأخ أبي خالد

السلام عليكم

الموضوع الباقي هو موضوع عارف. لقد أرسل أفراداً للتفاوض والتفاهم، وكما تعلم يعتمد عارف على ادعاءاته القوية. ولا شك سوف يُنكر ويتنصل من أعماله كما فعل في السابق. إننا سوف لا نهتم بالتصريحات والشروط التي اتفقنا عليها بل سوف نعمل على إقامة مجلس للقيادة ويُعيّن لهذا المجلس قائد. وسننخذ الإجراءات الصارمة ضد كل خائن يُعارض الأمة. أرجو من الأخ أن يُعيّن محكمة مؤلفة من عدد من الأعضاء ورئيس فعال ومخلص. وهؤلاء ينظرون في جميع الدعاوى والخلافات.

المجاهد الصغير

عبد الرحيم الحاج محمد

الوثيقة السادسة

بلاغين رسميين أذاعتهما حكومة الانتداب البريطاني حول استشهاد القائد عبد الرحيم الحاج محمد البلاغ الأول: «وصلت إخبارية إلى الحكومة تقول أن عصابة كبيرة برئاسة الزعيم المعروف عبد الرحيم الحاج محمد. وتضم الزعيم سليمان أبو خليفة وصلت إلى إحدى قرى السامرة. صانور. وفي الحال أرسلت قوة من الجيش تساعد الطيارات إلى مكان الحادث. وما كادت العصابة تشعر بوصول الجند حتى يادر أحد أفرادها إلى اختراق الطوق المضروب محاولاً الفرار. فأطلق عليه الجند الرصاص فقتل على الأثر. وثبت فيما بعد أنه عبد الرحيم الحاج محمد نفسه الذي كان من كبار زعماء الثورة الحاضرة. والمعروف أنه كان متغيّباً منذ مدة خارج فلسطين. وقد جرح أيضاً الزعيم الآخر سليمان أبو خليفة وقبض الجند عليه. أما العصابة فعملت القوات على تطويقها وهي تحاول الآن القبض على أفرادها.»

البلاغ الثاني: «توفرت الآن المعلومات التالية عن الاضطدام الذي وقع في قرية صانور عندما قتل عبد الرحيم الحاج محمد. فقد عثر على المواد التالية: خمس مسدسات و٧٠٠ رصاصة و١٢٠ كبسولة. ووجد مسدسان مع عبد الرحيم الحاج محمد وثلاثة مع رفيقه سليمان أبو خليفة الذي جرح وأسر ثم مات بعد ذلك

متأثراً من جراحه. وقد أغلقت اليوم حيفا ويافا وطولكرم والرملة واللد وغزة ونابلس حداداً على عبد الرحيم الحاج محمد.»

المصادر والمراجع:

- البلاغ. تسفي. الثورة العربية الفلسطينية ١٩٦٣-١٩٣٩م. ترجمة د.خليل عظامنة. مركز الدراسات العربية. جبعات حبيبة. ١٩٧٨.
-أوحنا. يوفال. فلاحون في الثورة العربية في فلسطين (بالعبرية). مركز شيلوج. جامعة تل أبيب. ١٩٨٢.
دانين. عزرا. وثائق وشخصيات من أرشيف العصابات العربية (بالعبرية). دار ماغنس. تل أبيب. ١٩٨١ (عن النسخة المنشورة سنة ١٩٤٤).
الدباغ. مصطفى مراد. بلادنا فلسطين. ط ٢. دار الشفق. كفر قرع. ١٩٨٨.
حمودة. سميح. «أوراق داود الحسيني-جوانب مستترة من النضال الفلسطيني في فترة الانتداب» مجلة حوليات القدس. مجلد ٦. عدد ٦. ٢٠٠٨.
الرواية الرسمية الإسرائيلية للثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦-١٩٣٩م. ترجمة أحمد خليفة. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. ١٩٨٩.
زعير. أكرم. يوميات الحركة الوطنية الفلسطينية. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. ١٩٨٠. ط ٢. دار اليسار. باقة الغربية. ١٩٨٨.
سرحان. نمر وكبها مصطفى. عبد الرحيم الحاج محمد القائد العام لثورة ١٩٣٦-١٩٣٩م. سلسلة التاريخ الشفوي. رام الله. ٢٠٠٠.
-السفري عيسى. فلسطين بين الانتداب والصهيونية. ج ٢. يافا. ١٩٣٧.
-عرار عبد العزيز أمين. المجاهد عبد الرحيم الحاج محمد. فصلية الجليل. العدد الأول. ١٩٩٤.
-عقل محمد. المفصل في تاريخ وادي عاره- عارة وعرة من بداية ثورة ١٩٣٦ إلى نهاية حرب ١٩٤٨. ج ١. مطبعة الشرق العربية. القدس. ١٩٩٩.
-عقل محمد. المفصل في تاريخ وادي عاره- من بداية العهد الكنعاني إلى نهاية العهد العثماني. ج ٢. مطبعة الأمل. القدس. ١٣٢٥هـ/٢٠٠٤.
-عقل محمد. وثائق محلية من فلسطين العثمانية. أ. دار الهدى. كفر قرع. ٢٠٠٥.
-قاسمية خيرية. مذكرات فوزي القاوقجي. بيروت. ١٩٧٤.
-وثائق من أرشيف الجيش الإسرائيلي. جبعات حبيبة.
-وثائق من الأرشيف الفلسطيني في جامعة بيرزيت (وثائق).
-وثائق من الأرشيف الصهيوني المركزي. القدس.
-وثائق من أرشيف الهاغاناه في تل أبيب.